

اقتلاع الجذور العفنة

نفس الوقت الذي يرجع فيه الكبار .. اناس كبار ضعاف .. متعبون .. عيونهم هامة .. ارجلهم ثقيلة .. وخطواتهم حائرة .. وفي ايديهم اشياء .. ارفعة خبز .. خضر من السوق .. وثيابهم ملطخة بانثار العمل . « ان جميع الاطفال ذوي مستوى اجتماعي واحد ، جميعهم يعيش حياة لا يعرف الترف اليها سبيلا ، الا ابن الحاج الذي يتميز عنهم بأنه يملك وسيلة من أهم وسائل الترفيه والتسلية عند الاطفال .. كرة .

وبالرغم من ان الطفل عبدالله تمتلئ نفسه بما لا اعتقاده ان جميع من في الشارع يحتقرونه ولا يحبونه ، الا ان هناك ادراكا اكبر كان يتماثل لديه « كلمات قبيحة .. كانت دائما تصفق بامه .. حتى النسوة كن دائما يشرن اليه ويقلن في غير حياء هذه الكلمة .. ولم يكن يصدق هذا الكلام .. فهو يحب امه .. ويراهما جميلة .. صغيرة .. على وجهها اصباغ لا تحلم بها نساء الحي .. وتميش بعيدا عن جوهن الموبوء الملوء مشاحنات .. وعن التراب .. والجامع النهيم .. والبيوت المنخفضة اللاصقة بالارض .. وكان يحبها جدا على الرغم من انها لا تسكن معه ولا مع جدته حيث يعيش .. ولم يكن يتصور ابدا ان هذه الانسانة الرحيمة الجميلة يمكن ان تكون ما يدعونه في الحي ، انه يكرههم لذلك .. انه يكره حتى شارعهم .. حتى اطفالهم »

هذا الادراك كان يرتفع عن تلك الاحساسات اليومية التي تخالجه .. ومن هنا فطن الى وسيلة الضغط التي يستخدمها ابن الحاج ليكسب اطفال الشارع الى جانبه ، الاطفال الذين يبحثون عن التسلية ، يقفون مع من يوفرها لهم دون احساس بما يشكله ذلك من اساءة - ولو كانت غير مقصودة - بالآخرين .

كانت كرة ابن الحاج هي وسيلة الضغط فتجمعت احلام عبدالله على ان تكون له كرة .. كرة جميلة وكبيرة ، اكبر من تلك التي يملكها ابن الحاج ، وعندما تأكد من قوة جانبه باستمالة بقية اطفال الشارع للعب معه هو بكرته الجديدة الكبيرة اصبح من حقه ان يقف في وجه ابن الحاج وان يرد له واحدة من الطعنات التي طأسا وجهها اليه « - نلعبو معاك يا عبدالله ..

قابتسم عبدالله ابتسامة مرحة ولعت عيناه وقال :
- العبوا كلمم الا ابن الفاسدة .. هذا .. ما يلعبش معنا ..
امي قالتلي ما نلعبش معاه .. وحينما هجم عليه ابن الحاج .. وقف الجميع دونه يدافعون عن عبدالله »

الادب هو الصورة الصادقة عن المجتمع ، وهو الذي يحفظ خصائصه ويسجل حركته ليعطي الفكرة موجزة بعد ذلك يستطيع الانسان من خلالها ان يعرف ، وان يسجل ، وان يستنتج .
ولعل في الشعر العربي طيلة القرون الماضية جميع المقومات التي تعطينا صورة عن المجتمعات التي خرج من بينها الشاعر ليسجل مرحلة ، ويؤرخ من خلال حياته وحياته من معه حركة مجتمع ، فمن خلال اشعار الشعراء يستطيع الباحث ان يدرك الكثير ويعلم الاكثر عن الفترة الزمنية التي عاش فيها الشاعر ، عن الحياة الاجتماعية والنظم والمعادن والقيم والديانة .. الى الكثير مما يمكن من اخذ الصورة الكاملة من خلال الشعر العربي لمجموعه من الشعراء في فترة زمنية واحدة ، اذ تكتمل زوايا التسجيل وتلتقط الانطباعات من اكثر من عين وعقل ، كل منها يشكل جزءا من الصورة الرئيسية التي تكتمل بعد ذلك بتجميع الاستشهادات والاستدلالات .

واذا كان احد الباحثين (1) المحدثين قد استطاع من خلال رواية ساذجة هي « حديث عيسى بن هشام » ان يخرج بتأصيل متكاملة عن النظام الاجتماعي والجوانب الاقتصادية والسياسية التي جانب الاجتماعية ، فنلمس المظهر العلمي والقسم الدينية والمظهر الفكري لنخرج بصورة شبه متكاملة للمجتمع المصري ليس في عصر عيسى بن هشام فقط بل في عصر الباشا كذلك . فان المتبع للنتائج الادبي يستطيع ان يخرج بالكثير .

ماذا اذن عن الادب الليبي ؟ ما الذي يمكن لنا ان نخرج به من خلال قراءتنا في الادب الليبي ؟

« الكرة » (٢) .. « العيد في الارض » (٣) « الجدار » (٤) .. و « الرمال الناعمة » (٥) اربع قصص ليبيية قصيرة تحاول ان تسجل حدنا .. تبين موقفا وتعطي رأيا ، من وجهة نظر خاصة ، هي وجهة نظر الكاتب .

في « الكرة » (٦) يمالج (كامل حسن المقهور) وضعية الطفل عبدالله الذي يواجه بالرفض من كافة اطفال الشارع يتزعمهم ابن الحاج ، لان والدته مومس ، ينبعث هذا الاحتقار اساسا من امتلاك ابن الحاج لوسيلة استطاع ان يتزعم بها اطفال الشارع .

ان جميع الاطفال يعانون الفخر « في نفس الوقت الذي يتجمع فيه الصغار في الوسعاية فرييا من الطريق المار بين الجبانتين .. قبل ان يمتد الشارع الكبير الرصوف الذي يصل الحي بالمدينة .. في

ان الكرامة التي اذلت كثيرا حان لها ان تأخذ دورها في الدفاع عن نفسها .

اذا كانت عملية الحوار تتم بين طرفي الصراع في (الكرة) فانها تغيب تماما في « العيد في الأرض » (V) ولا نلمس لها اي ضلال من خلال حوار يتدفق بين شخصيات تمثل طرفا واحدا ، لكن (عبدالله القوي) يحول ذلك الحوار المتفقد الى لغة سردية ووصف لما عليه كل من الطرفين ، في مكان السكن ، في نوعية الملابس ، في نوعية الاكل ، الى جانب العمل .. اسلوب التعامل ، والفرحة في مناسبة دينية هامة هي عيد الفطر ، كما تتغير النتيجة من اتخاذ نفس اسلوب الطرف الثاني في الصراع الى موقف اخر اشمع واعم لاجتثاث المشكلة من اساسها .

ذلك ان سالم توصل الى قناعة كاملة من خلال كافة الفوارق التي لاحظها ولاحظها في كل ما يحيط بحياته ، في المسكن « استهرا في سيرهما حتى تركا البنائات الكبيرة خلفهما ، وبانست امام عينيهما اطراف المدينة ، حيث تقبع الاكواخ وسط اكوام من المهمات وبقايا الحرب الماضية من اسلاك وبراميل قديمة » والماكل ..

« وانتشرت في الجو رائحة التوم والبصل واللحم ، ودخلت الى انف عيسى ، فحاول ان يقارنها بما تخلل انفه اثناء سيره في الشوارع الواسعة ، فادرك ان الفرق غير مرئسي .. ومصمص شفتيه وسكت » . واسلوب الحياة « حتى المقاهي قد خلت مسن روادها في هذا اليوم ، ورأى لهذا اليوم عند كل الناس تمييزا ، كما تميز عنده ايضا ولكن ليس كبقية الناس الصغار ، ومن ان ته ان يكون مثلهم .. وبأي شيء ؟ هو لا يعرف من امر حياته سوى انه يملك هذه القروش التي يتاجر بها ، فيشتري صندوق حلوى ثم يدور به لبيعه ، فيكسب قرشين او ثلاثة يعرف ان ياكل بهما حتى اذا جاء الليل اوى الى ذلك المكان خارج المدينة ، حيث خرقة الباليه ، وقد حشدها في ركن حائط قدم متهدم ، فيلتف بها ، ويلفسي بجسده في ذلك المكان المظلم فلا يصحو الا عند الفجر على اصوات العربات تقطع ذلك الطريق البعيد فيسرع اخذا صندوقه وما تبقى فيه من بضاعة ويسير متمهلا وعيناه ما زال يفلقهما النوم ، وجسده وقد رضه هواء الليل البارد ، الذي نفذ الى جلده من خلال الخروق التي تغطي بها .. ويتقلب على خموله رويدا رويدا .. ويسير ، ثم يقفز خلال الازقة حتى يصل الشوارع الواسعة ، فيرفع صوته بالنداء على بضاعته بادنا يوما جديدا » .

ومن خلال هذه التفاصيل التي يقدمها القصص يمكن لنا ان نلمس تلك الازمة النفسية التي يعيشها عيسى بين واقع يعيشه ومثل طيب يعيش في خياله من خلال وصايا دينية « - هيا ياخوي .. وتفادي تآزم الموقف بان سار معه وانثقت من فمه كلمة ..

- انا مسكين

ونظر اليه سالم ولم يقل شيئا . فعاد بردد :

- رافد ربح .

ولم يجبه سالم بشيء ، وكان يسبقه بخطوات ، فأسرع عيسى ليلحق به متسائلا :

- حق .. عيدنا في اسما .. المسكين كيفنا ؟

- وانت مسكين ؟

- ومين عندي ؟

- عندك نفسك ؟

- نفسي اليوم جوعانة .. في يوم العيد ، حتى شيء ما عندي

.. ثلاث قروش .. هاه « الا ان الفكرة تبلور في النهاية لتصبح ادراكا كاملا بنعمق ويتعمق ليصبح مناداة بدعوة ومن خلال الاصرار على تحقيقها يتم تحقيق العمل الشامل .

اذا كان من يتوون بالنار في (الكرة) و (العيد في الأرض) قد وجدوا انفسهم هكذا ، في وضع اجتماعي سييء لا ذنب لهم في صنعه ولا في صنع رواسته فان (يوسف الشريف) في (الجدار) (A) يعطي للمشكلة وضما آخر حين يضع وجهه لوجه ، من صنع هذا الوضع ، ومن احس به وحاول مقاومته ، ثم رفضه .

ان البداية في صنع هذا الوضع على المستوى الضيق ، ومستوى الشارع كان خطأ من مفتاح « حدث ذلك منذ شهر .. عندما بدأ عمله بوظيفته الجديدة .. وعندما سكت على شيء ما حدث في المصاحبة التي يعمل بها وكافاه المدير بترقيته الى الدرجة الثالثة .. منذ ذلك اليوم بدأ الجدار الاسود يعلو وعلو حتى يتمثل انه سجين زنزانه لا سبيل للفرار منها » .

وكان من الممكن ان يتغاضى الانسان عن تلك الغلظة لوجود رابط عميق في الوجدان بين مفتاح ومجموعة الدكان الا ان الترقية والنصب الجديدين خلفا شيئا آخر في نفس مفتاح « عندما ذهب الى المصاحبة التي يعمل بها مفتاح وطلب مقابلته .. الا ان المباشرة به بحجة ان السيد مفتاح مشغول .. »

ازدادت التراكمات في علو ذلك الجدار بين الطرفين . شراء السيارة . الانتقال الى مسكن جديد في حي راق . ثم الانقطاع عن مواصلة رفقاء العمر .

لذلك فعندما قام مفتاح بزيارة اصدقائه وشارعه القديم بعد فترة انقطاع وجد تلك التراكمات قد خلقت الجدار المصلب ، ووجه بالرفض ممن كانوا خالصاء بالامس كرد فعل على جميع اخطائه المتتالية والتي لم يراع في اي منها حق عشرة او صداقة .

والرفض هنا يتم عن وعي ، كما انه يتم بموقف واحد من كافة مجموعة الدكان ، عندما حلت لحظة المواجهة ، واطهار ما في اعماق كل منهم ، وهو رفض ينبيء عن استنكار واضح لسلوك انتهاري ، وينبئ عن لحظة مواجهة اكبر واشمل ، ليس مع مفتاح وحده ولكن مع كسل ما يمثله كنموذج سييء يجب ان يتوقف عند حد معين من ممارساته القفرة .

في « الرمال الناعمة » (9) يلجأ (احمد ابراهيم الفقيه) الى المواجهة بين الطرفين كما فعل (يوسف الشريف) ، لكن الموقف يفسح تماما من يد القصاص ، بل يصبح انهزاما للانسان من الداخل .

اننا نلتقي مع مواجهة غير مرتبة اصلا مع محمود ، المناضل القديم الذي يبدأ القصص في اعطائنا معلومات عنه « كان يتقدمنا دائما .. شهما ، صريحا يتقد توهجا يتسامح مع كل من اخطا في حقه ، لكنه لم يكن يتسامح ابدا مع من تهون في حق وطنه ، حتى في ارض القرية عندما كنا نواصل دراستنا كان الوطن يملأ وجدانه فيجمعنا لتؤسس نادي باسم بلادنا ، ويملا قاعات الدراسة بالحديث عن وطنه ويظوف بنا بين الصحف عليها تنشر المعلومات التي تقدمها لها عن بلادنا .. بعد ان تخرجنا اصر بعضهم على ان يثري بأسرع الطرق كان محمود وحده الذي ما كان حرصه في يوم من الايام على ان يكون له بيت فاخر وسيارة فاخرة وارصدة في المصارف كان يختار زبائن بسطاء مسحقين بالكاد يتحصل على مصاريف مكتبه وقوته الضروري ولم ادر ما هو رد الفعل الذي حدث في نفس محمود حتى جعله بترك مهنته القديمة ويصبح رجلا من رجال الاعمال ، ومرت سنوات وهو في مدينة .. وانا في مدينة اخرى .. اسمع اخباره ، لكنني لم التسق به .. »

كان محمود يوما ذلك المناضل القنوة ، وكان المشال الذي يتحدث « كان دائما يملا فكري ، حتى في عملي كانت شخصية محمود هي التي تملا ذهني ، وتقود خطاي وطالما تهيات الى يوم التقى

فيه بمحمود اسرد امامه هوموي واضيء بروحه وكلماته بعضا من فصباب الطريق» .

وسقط المناصل ، سقط في غفلة عن انخلوه فودة ، وكما كان سقوطه مفاجئا لمن زامله وعاش مع افكاره زمنا ، حتى انه لم يعرفه في بداية الامر عندما التقى به بعد غياب ، تغيرت اليه النظرة فجأة ايضا (فتشمت في عينيه فلم اجده . لم تكن هي عيناه . أين توهج محمود وموضته الكاشفة الحارقة عندما ينظر اليك من هذين القنديلين المطفاين .

وعندما ابتسم .. لم تكن هي ابتسامة محمود القديمة ، كانت ابتسامته المشهورة التي تشرق في وجهك ، فتحس بها عازجة ساخنة كاتفاسه ، لقد اختفت ، حلت مكانها مساحة بيضاء تظهر وتختفي دون مبرر لظهورها واختفائها ، واحسست بابتسامته باردة ، لزجة ، تسيل على وجهي ويدي وقدمي ، حتى اشعرني بالاشمئزاز» .

هذا التغير في الاحساس لم يصحبه اطلاقا موقف صارم ثابت ، بل تبعه احساس بالهزيمة ، ليس على مستوى العلاقة القديمة بين بطل القصة ومحمود فقط ، بل ايضا في اعمال محمود « عندما دعني ومضى يتلعه الزحام ، وقفت تائها مرزوا ، احسست بخيبة لم احس بها طوال عمري تحط في نفسي وتلاها ، حتى كدت اجش باليكاء وسط الشارع .. ولم ادرك ان كنت احس كأن محمود كان رفيق سفري الوحيد ثم مات عني .. ابتلعت رمال ناعمة ، وبتاضرب في المتاهة وحدي .. كنت خائفا مدعورا . تحول الرصيف تحسنت فدعماي الى شبيه رطب لزج ناعم .. كانه الرمال الناعمة .. وكنت امتلئ خوفًا من ان تمتصني الرمال الناعمة» .

انه العجز وفقدان الثقة حتى في النفس عند (احمد ابراهيم الفقيه) .

ما الذي يمكن لنا ان نخرج به من خلال هذه القصص الاربعة التي يربطها محور واحد ، لقصاصين تختلف اعمارهم .. يختلف امتلاكهم لاسلوب العرض الفني .. تتعدد مصادر ثقافتهم .. تختلف نظراتهم الى الحياة والمجتمع ، ويختلف موقفهم منها .. ويختلف ايضا زمن كتابة كل منهم لقصته فتمتد المسافة الزمنية لما يقارب الخمسة هجر عامًا بين (الكرة) و (الرمال الناعمة) داخل مجتمع لا تثبت حركته ، يضاعف اكتشاف النفط في ليبيا من سرعة حركته من مجتمع العشيرة الى مجتمع المدينة ..

ما الذي يمكن لنا ان نخرج به من خلال هذه القصص ؟

ان الظواهر العامة تجتمع في عدة نقاط رئيسية نلاحظها سرعا .. فوجود طرفي صراع في كل قصة ينبثق منه الحدث هو المظاهر الرئيسية ، ويتمثل هذا الصراع في طرفين ، يتخذ موقفا جميعا تارة وموقفا فرديا تارة اخرى .. فابن الحاج يقابله عبدالله (الكرة) عيسى وصديقه يقابلهم الطرف الغائب ، سكان العمارات والمنازل (العيد في الارض) مفتاح يقابله سليمان وجماعة الدكان (الجدار) ثم محمود .. ويقابله راوي القصة (الرمال الناعمة) .

ومن خلال هذا التقابل يبرز وضع اجتماعي معين يحكم علاقة الأطراف جميعا . امتياز ابن الحاج بامتلاكه للكرة .. امتلاك سكان المنازل والعمارات لوسائل الحياة النظيفة والعيشة اليسرة ، ثم انتقال مفتاح ومحمود من وضع الى اخر افضل منه ، سواء في المنصب أو السكن أو عيشة الرفاهية ، بعد ان انسلخوا من ارتباطاتهم الوجدانية والفكرية القديمة .

وتأتي مرحلة الانتباه لتبدأ في تفجير الصراع ، أن الأطراف المظلومة هنا تفيق في لحظة معينة الى ما تمناه من فقدان للكرامة أو سوء العيش وتبدأ مرحلة الموقف والدعوة الى التغيير في العلاقة بين الطرفين ، من ظالم ومظلوم ، من حياة رفاهية وحياة بؤس، من

العيش داخل نطاق الزمن والعيش خارجه ، الى علاقة جديدة مبنية على الكرامة وعلى توفير سبل العيش ، بشرف وعفة ، في جو تكون فيه القدرات والكفاءة هي المحك لبروز أي شخص في المجتمع الجديد النظيف .

وتكون نهاية الصراع هي الموقف النهائي للكاتب ، والتي يبدأ بعدها الأطراف علاقتهم الاجتماعية من جديد وفق اسس عادلة وفرص متاحة للجميع ، فعن حين تكون دعوة (كامل القهور) لبنياء المجتمع الجديد استخدام نفس الوسيلة التي يلجأ اليها الطرف الاخر للانتصار عليه ، يدعو (عبدالله القويروي) الى الثورة الشاملة وتحقيق مجتمع التكافل والعدل بتغيير فكر المجتمع اولا ، وبينما يرفض (يوسف الشريف) النموذج القدر ويدعو لمقاومته وافساح جنوره ، يسقط (احمد ابراهيم الفقيه) وتظهر نماذجه متخالفة تنقلب من النضال السياسي الى الكفر بالمثل والعمل بنقيضها ، ويعجز البطل في قصته حتى عن حماية نفسه من السقوط في الهاوية التي انحدر اليها زميله القديم .

وعلى حين يستخدم كل من (كامل القهور) و (عبدالله القويروي) الاطفال اطلاقا لقصصهم على اعتبار ان الفترة التي يمثلونها (الخمسينات) هي نتيجة لممارسات الجيل السابق ، يستخدم (يوسف الشريف) و (احمد ابراهيم الفقيه) الشبان اطلاقا لقصصهم لان هذا الجيل (الستينات) هو جيلنا نحن ، وان اي ممارسات منحرفة هي حصا لاعمالنا ونتاج لفكرنا ، يجب ان نتحمل نحسن مردوداته وتكون على استعداد لتحمل كل ما ينتج عنه اذا لم يكن الرفض والتحدي لكل منحرف واجناب الرئيسي .

لقد قال جيل الخمسينات والستينات رأيه ، فما هو رأي جيل السبعينات ؟

سليمان كشلاف

طرابلس (ج.ع.ل)

هوامش :

- ١ - محمد رشيد ثابت / البنية القصصية ومدلولها الاجتماعي في حديث عيسى بن هشام / منشورات الدار العربية للكتاب / ط / ١ / ١٩٧٦ .
- ٢ - كامل حسن القهور ١٤ قصة من مدينتي / دار النشر الليبية / ط / ١ / ١٩٦٥ م .
- ٣ - عبدالله القويروي / العيد في الارض / منشورات المكتسب التجاري للطباعة والتوزيع ببيروت / ط / ١ / ١٩٦٣ م .
- ٤ - يوسف الشريف / الجدار / منشورات اللجنة العليا لرعاية الفنون الاداب / ط / ١ / ١٩٦٦ م .
- ٦ - كتب كامل القهور قصة (الكرة) سنة ١٩٥٤ م .
- ٧ - كتب عبدالله القويروي قصة (العيد في الارض) سنة ١٩٥٧ م .
- ٨ - كتب يوسف الشريف قصة (الجدار) سنة ١٩٦٣ م .
- ٩ - نشرت قصة (الرمال الناعمة) في مجلة الرواد / السنة الثانية / العدد ١١ / نوفمبر ١٩٦٦ م .